نداء الأقصى

سلسلة البحوث العلمية المحكمة (3)

النهضة الحسينية تنظير التغيير

المؤلف

صادق حسن علي اللواتي

تدقيق لغوي

الأستاذ هناء عليوى

بالتعاون مع

المركز الوطني للبحوث

(قيد التأسيس)

مسقط - سلطنةعمان

2024

إن المتتبع لمجريات النهضة الحسينية سيقف على أمور أربعة: الأول الرغبة في الشهادة ، والأمر الثاني إقامة الدولة، والأمر الثالث المحافظة على الأرواح والأنفس، والأمرالرابع تحقيق الأهداف السامية لتبدأ مرحلة التغيير، وهذه الأمور الأربعة تسمى في علم الاجتماع بالنظريات، والنظرية قبل أن تصل إلى مرحلة القواعد والمبادئ في وصف شيء ما أو ظاهرة ما وتفسرها، مثل ظاهرة الشهادة مثلاً فإنها تمرّ بداية بمرحلة التنظير بمعنى لا نستطيع أن نطلق على شيء يستخدمه الناس ضمن قواعد معينة بالنظرية إذا لم تمرّ هذه النظرية ضمن مرحلة التنظير، ولكن ما معنى التنظير ؟

التنظير هو مجموعة الأفكار والآراء تبدأ بالملاحظة وبناء مفاهيم وصياغتها باستخدام الأدوات البلاغية لتصل إلى مرحلة النظرية ثم يتم تفسير هذه النظرية ، إذاً مفهوم التنظير يعدّ مفهوماً أساسياً والذي من خلاله يقدّم تصوراً أولياً لفهم النظرية .هل اتضحت الصورة لكم ؟ أعتقد أنه يجب أن نوضح أكثر ، عندما يحل شهر محرم تبدأ المجالس المنبرية تأخذ مساحة اجتماعية كبيرة في المجتمعات الشيعية في العالم ! فما الذي يطرح على هذه المنابر ؟

وعظ وإرشاد، تاريخ ، عقائد، قيم أخلاقية، فقه. هذه المواضيع جميعها تختلف في طرحها من خطيب إلى آخر، ومن بلد إلى آخر، مثلاً نأخذ مشهداً تاريخياً للنهضة الحسينية فنذكر مسلم بن عقيل ، يذكر الخطيب أن مسلماً لم يكن يعرف طوعة التي أوته في بيتها والسبب لأن أصحاب مسلم خذلوه فأصبح وحيداً لا يعرف كيف الخروج من الكوفة حتى وقف عند باب امرأة تسمى طوعة ،هذا تاريخ ، ولكن هل المصادر التاريخية المعتبرة تتفق مع هذه الرؤية الخطابية أم لا ؟

الجواب: كلا إذ هذا التنظير الخطابي هو تنظير شخصي لا علاقة له بالتاريخ لأن المصادر التاريخية تقول مثل الدينوري الحنفي في الأخبار الطوال: "إن طوعة أوت مسلماً وفرشت له في بيت غير الذي تسكن فيه" مما يدل على سعة مساحة بيت طوعة والذي يتم استخدامه كمخزن للأسلحة واستراحة الجند وكمخزن للتموين وكمركز لقيادة العمليات العسكرية وأن طوعة كانت تعرف مسلم بن عقيل حق المعرفة. (1)

هذا التنظير الخطابي سبّب مشكلة تاريخية للشيعة الإمامية ، فما هي هذه المشكلة ؟ طالما مسلم بن عقيل لا يعرف سكك الكوفة فلماذا اعتمد عليه الحسين بن علي واعتبره إذاً ثقته؟ أنت اذهب إلى أي قائد جيش في العالم وقل له: هل تبعث أحداً من قادة العسكر إلى أي مكان هو لا يعرف جغرافيته ؟ الجواب: طبعاً لا. إذاً هذه الصورة القاتمة التي تبث عبر المنابر شوهت صورة سيّد الشهداء الحسين بن علي، من هنا خرجت أصوات تعترض على هذه الثقافة التاريخية المزيفة لماذا ؟

لأن المسألة التي تحتاج إلى اختصاص ومداولة، وقصور فكر الخطباء ونظرهم إلى حدّ قرّبهم من عتبة الجهالة، وصار كلامهم أشبه بالدعاية أو رفع الصوت لإثبات اتجاه المذهب عندهم،

ولا شكّ أن بعضهم يكون من أهل الفضل لكنّه ليس دارياً بدقائق المسألة ولا أصولها ولا فروعها التخصصية ولا معلوماتها المأخوذة من مصادرها الموثقة .

هذه التنظيرات السطحية بحاجة إلى إيجاد تأسيس قواعد في تصحيح المسار الفكري التاريخي تماماً وخاصة بعدما آلت إليه الأوضاع في طوفان الأقصى، إنها مغامرة مجنونة أدت إلى قتل الأبرياء وإن هذه المقاومة أضرت بالقضية الفلسطينية فبدلاً من أن تكون هذه العملية سنداً للقضية انقلبت عند هؤلاء إلى عدوّة للفلسطينيين .

إذاً هذه الأفكار ستعيق عملية الوصول إلى نظرية المقاومة فما هو الحل بالتالي ؟ من الواضح أن كل الرؤى السابقة وأصحابها اعتقدوا في عملية التنظير أنهم مهتمون بالدرجة الأولى بسياق التبرير وليس بسياق الاكتشاف، ولكي نتخلص من هذه المعوقات في عملية التنظير الجديدة يجب أولاً أن يقدم التنظير ضمن أسلوب علمي رصين بحيث نكتشف الشيء الجديد مثل أن العدوّ الصهيوني يقوم بجرائم ضدّ أناس عزل فيجب البدء بالتنظير من هنا باعتبار أن هذه الجرائم منافية للشرع والقانون، وأن تاريخ بني أمية مليء أيضاً بالجرائم وانتهاك حرمة الأحكام الإسلامية. إذاً التنظير لا يتم إلّا في ضوء صياغة فهم جديد لظاهرة ما تختلف بطبيعة الحال عن النوع الذي تلقيناه وهو نوع بلا معرفة.

ثانياً: إن البيانات أو الأفكار التي وصلت إلينا والتي أصبحت معوقاً آخر يجب إدخالها في البحث لمعرفة أسباب السياق التبريري من وجهة نظر الذين قالوا إن المقاومة الإسلامية مجنونة وإن مسلم بن عقيل لم يكن يعرف جغرافية الكوفة، من أجل تمييز التنظير القادم عن السابق بهدف الوصول إلى اكتشاف شيء جديد وهذا الاكتشاف له ارتباط وثيق مع صاحب القضية، فمقاومة العدوّ الصهيوني مرتبطة بقائد المقاومة ، ووجود مسلم بن عقيل في الكوفة مرتبط بقائد النهضة وهو الحسين ابن علي.

فإذا استطعنا الخروج من هذا الارتباط بمفهوم محوري جاهز نستطيع عندها أن نحدّد الشكل النهائي للتنظير بأن المقاومة الإسلامية تتصدى لجرائم العدوّ الصهيوني على البشرية وليس على الشعب الفلسطيني فقط، كما أن التخطيط السليم لوجود مسلم بن عقيل في الكوفة هو جزء من المخطط الكبير لإنقاذ الإسلام من قبضة بني أمية وكشف زيف حكومتهم التي توشحت بوشاح الدين والتقوى .

نشرت الوسائل الإعلامية خبراً مفاده أن يحيى السنوار قائد حركة حماس قال في رسائله إلى الوسطاء وأعضاء المكتب السياسي لحركة حماس في الخارج: " إنه مستعد للموت في القتال، حيث شبّه في رسالة حديثة الحرب قائلاً: علينا أن نمضي قدُماً على المسار نفسه الذي بدأناه أو فلتكن كربلاء جديدة".(2)

هذا وقد بات واضحاً من الخطاب الاستراتيجي العسكري أن هناك مفاجآت بحاجة إلى فهمها بعيداً عن التنظير التقليدي أو التنظير البارد، حيث إن وظيفة هذا الخطاب هو كسر إرادة الخصم باستخدام أدوات القوة من أجل تحقيق أهداف عسكرية والوصول إلى نصر حاسم هذا من جانب، ومن جانب آخر بناء الهوية الفردانية التي ستلعب دوراً مهماً في بناء المجتمع وهي مرحلة مهمة في عملية التغيير، وهو العمل على إيجاد سندٍ نظريٍّ لكلّ تصرف الأفراد أو الجماعات .

ونحن نعرف أن هناك دوماً حركة ذهنية خفيّة بمبادئ وأولويات واضحة أو معتمة ، مضمرة أو معلنة تكون بمثابة الإطار المرجعي أو النموذج الموجه للقرارات الذي لا نستطيع النظر إلى الواقع بدونه ، بل حتى مسألة الإشكالات وطرق حلّها مرهونة بهذا الإطار المرجعي، مثلاً عندما نرى البعض يقول: إن سماع صرخات أطفال غزة والآلام التي يعانون منها هو دليل على انهزام أهل غزة، أو أن الحسين بن علي بخروجه على يزيد بن معاوية أوجد شرخاً في الأمة الإسلامية، فهذا التنظير جاء من حالة اليأس التي يعيشها البعض، فلم يكن أمامهم سوى تهميش الاستحقاقات المرجعية .هنا ثمة سؤال يُطرح : ولكن لماذا يتم تهميش الاستحقاقات المرجعية ؟

نحن بتنا اليوم لا نفكّر بصفاء نظري كم هو مؤلم أن نبحث عن حلول لقضايا العصر بحيث أصبحنا لا نفكّر بذهنية الانتصار ورفض الهزيمة التي تحفّز مسارات الأفراد والجماعات على مستويي الهوية والجهاد التعبوي لتتجلى في نهاية المطاف مكانتها وقدرتها على الانطلاق نحو أهدافها، ولو تمعنا في ثورة الحسين بن علي ضدّ حكومة بني أمية سنجد أنها كانت سبباً في إيقاظ ضمائر الشعوب نحو مقاومة الظلم .

وهذه المقاومة تعزّز القدرة على جمع عناصر الهوية حتى لو كانت متنافرة وغير منسجمة قبل أن تعيد إنتاج تاريخ جديد للجماعات، وهذا الإنتاج وجدناه في خطاب يحيى السنوار عندما قارن مقاومة حماس ضدّ الاحتلال الصهيوني بمقاومة الحسين بن علي ضدّ حكومة بني أمية ، هذا الخطاب أعاد إلى أذهان الشعوب الانتصار الذي حققته النهضة الحسينية وميلاد أمة منسجمة قادرة على التمدّد في الزمان والمكان، وبشكل موازٍ تشكلت ذاكرتها المشتركة كربلاء وغزة .

وفي المقابل عندما نجد نقيض تلك الهزيمة التي تقطع سردية استحقاق الهوية للفرد لإحلال النزعة التسلطية والتي وحدها تملك الحضور ضمن مقومات بناء هوية الفرد، فإن الهزيمة

قادرة على قطع الحضور التاريخي وإجهاض كافة التمثلات والتشكيلات الذهنية حول قيم البطولة، الأمر الذي يعرّض حياة الفرد والأمة لخطر الزوال، والدليل على ذلك لو لم ينهض الحسين بن علي ضدّ المشروع الأموي لكان الإسلام اليوم بصيغة أموية ، ولو لم يكن طوفان الأقصى لوضع ملف القضية الفلسطينية على الرفّ وأسدل الستار عنها ضمن مشروع التطبيع مع العدوّ الصهيوني ولكان الإسلام اليوم بصيغة صهيونية.

نحن أحياناً وفي أغلب الأوقات نكون قادة الطاقات الكثيرة السائبة غير المنتظمة، والتنظيم في العادة يقوم بدور المحرّك والمنسق والحاكم عند الاختلاف، ويكون الباني لأجهزة الدولة الجديدة بعد نجاح التغيير، والواضح أن فكرة التغيير ودقائقه الصغيرة تكون ساعتها منضبطة لا يستبد بكل زاوية منها اجتهاد أو يكون جنوح لتهور أو حصول انتقام غوغائي، أنتم انظروا إلى الشباب الذين اقتحموا السياج الإسرائيلي في 7 أكتوبر عام 2023م كم كانوا فخورين بأنهم صنعوا طوفاناً وتركوا بصماتهم على حاضر ومستقبل فلسطين والأمة الإسلامية على حدٍّ سواء، وهذا الفخر وجدناه في أصحاب الحسين بن علي، فهذا نافع بن هلال البجلي أحد شهداء معركة كربلاء يخاطب قائده بقوله : "والله ما كرهنا لقاء ربنا، وإنا على نياتنا وبصائرنا، نوالي من والاك ونعادي من عاداك".

هؤلاء الشباب صنعوا التاريخ ليكون طوفان الأقصى أحد أبرز مصاديق نجاح النهضة الحسينية، فقد يتوهم البعض أن الشباب كانوا بعفويتهم وبسبب نقص المخاطر قد لجؤوا إلى الاقتحام، هذا تنظير من يرى بعين الخوف ولكن المسألة ليست كذلك، الشباب دائماً هم الشعلة التي تسعى إلى التغيير، ولكن في نهاية الأمر المقاومة الإسلامية دخلت على الخط لمعرفتها أن الوقت قد حان لقلب تلك التنظيرات الباردة التي تريد أن تركب موجة النصر، وقد رأينا مقالات كثيرة ملأت الصحف تريد التقليل من هذه المقاومة الإسلامية، وهذا بديهي لأنه مخالف للمنطق الذي يرى القضية بمنظار من يقف في صف الكيان الصهيوني حيث قالوا: كيف يمكن لثلة التغلب على جيش متطور؟.

هذا التنظير كمن رأى تكاثف بخار الماء عندما يخترق الغرفة المخبرية فلا يرى غيره، لأن الولاء لهذا الجسيم الذي لفه البخار هو ولاء وهمي تماماً، فهؤلاء بلسان حالهم يقولون: من هو المجنون الذي يريد مواجهة إسرائيل؟ هذا التنظير أحادي الجانب لا يستوعب كل الشروط المنهجية في تحقيق الانتصار ولا يدرك أن هناك تنظيماً يكتفي بالطاعة والبيعة ليصنع تياراً موالياً يحوي كمّاً ضخماً من الطاقات يكفي لتحقيق الأماني الثورية والتغييرية وليست القوة بشرط حتمي، انظروا إلى شاشات التلفاز هناك مظاهرات في عقر دار من يناصر الكياني الصهيوني ومطالبات شعبية لإزالة إسرائيل من الوجود، وفي استطلاع جديد للرأي أجرته مؤسسة "فوكل داتا" لحساب موقع "أنهيرد" الإخباري البريطاني أن غالبية الشباب في بريطانيا لا يعتقدون بضرورة وجود إسرائيل .(3).

إن نهضة الحسين بن علي شكّلت منعطفاً مهماً في التاريخ الإسلامي وأعادت تشكيل قاعدة جماهيرية يكون لها تأثير على مجريات الحياة من جهة ، ومكانة في صدارة المشهد الجغرافي السياسي محلياً وإقليمياً من جهة أخرى ، فقد أعطت الخطابات الحسينية قوة دفع كبيرة للمجتمعات الإسلامية التي استشعرت بوجودها السياسي والاجتماعي، والهدف هو تشكيل قوة عابرة للحدود الوطنية تكون مرتبطة بالقيادة الربانية لتحتضن مضامين عقدية وخاصة التعددية الفكرية. من هنا تبدأ رحلتنا في تحليل الخطابات السياسية والاجتماعية والتي تحفّز مفهوم الخطابة عبر الدلالات التي نستطيع من خلالها التحكُّم بالمشهد السياسي والاجتماعي معاً.

الخطاب هو مجموعة مصطلحات ومفاهيم ينظم بعضها البعض الآخر ليعطي انسجاماً مركزياً للخطاب وقوة جذب يستطيع من خلالها التأثير على الجماهير، وهو أشبه بالمسرح الكبير الذي تقف عليه القوى السياسية ولكنه مسرحٌ كبيرٌ جداً أكبر ممّا نتوقعه .

هذا المسرح غير ثابت حسب العازفين وتقلبات أمزجتهم وحسب مواقف التغيير، ولكن الوطن والدفاع عن كرامة الإنسان يبقى ثابتاً لا يتغيّر بتغيّر موقعه الجغرافي، فأينما وجد إنسان مظلوم يعيش تحت نير الظلم وقيود الظالم، هنا يخضع خطاب التغيير لأشكال عديدة من التضييق ومحاولة إسكاته وتهميشه أو صرف جمهوره عنه، مثلاً قبل النهضة الحسينية كان النظام الأموي يحتل مساحة كبيرة من التواصل السياسي وله قنواته الإعلامية وجيشه، فعندما وصل بنو أمية إلى هذه القوة قام معاوية بتثبيت ابنه يزيد وريثاً لعرش ملكه، مع العلم أنه لم يرد في الشرائع السماوية ناهيك عن الشريعة المحمدية ذكرٌ أو نصٌّ لنظام الوراثة على الحكم، هذه العادة كانت عند المناذرة التابعين للفرس في العراق وكذلك عند مملكة الغساسنة التابعين للبيزنطيين في الشام .

لقد أدخل معاوية هذه المظاهرعلى نظام الحكم والتي أضفت بدورها على سلطته نوعاً من الفخامة، وهذا ما أدى إلى تقاسم السلطة بين الروم والدولة الأموية وقبول أهل الشام بنظام ولاية العهد والذي استطاع يزيد بن معاوية استقطاب القبائل واستمالتها إلى جانبه، فهو لم يكن فقط ملاعب للقردة وشارب للخمر، بل كان أكثر من ذلك فهو ابن معاوية الذي استطاع التلاعب بأحكام الدين الإسلامي حيث كان يتطيّب وهو محرم غير مبالٍ بنهي الله ورسوله، وله محدثات في الإسلام وبدع في الدين ومخالفات للشرع، خاصة وأن ولاية العهد ليزيد مخالفة لأحد بنود الصلح التي وقعها معاوية مع الحسن بن علي وهو أن لا يعيّن معاوية أحداً بعد وفاته ، لهذا ما أن استخلف معاوية ابنه يزيد وليّاً للعهد حتى لعنه الناس فلم تلق بعدها بيعة يزيد قبولاً عند المسلمين فتمت بيعته سرّاً، فالمؤرخون لا يذكرون أين تمت بيعة يزيد، فالمهم أنها لم تتم الموافقة عليها بالإجماع وهو ما كان يحرص عليه معاوية، وهذا يعني أن حجم الفساد كان مستشرياً في عهد معاوية هذه حالة واحدة، أما الحالة الثانية فنحن إذا ما رجعنا إلى القضية

الفلسطينية خاصة في مسألة التطبيع مع الكيان الصهيوني سنجد أنه لا يوجد هناك إجماع إسلامي على هذا التطبيع فكل مظاهره حيكت في أروقة البيت الأبيض الأمريكي وفي قصر باكنغهام في بريطانيا ، وهكذا يبدو أن حجم المؤامرة في القضاء على القضية الفلسطينية كان كبيراً، وفي كلا الحالتين الهدف منه هو القضاء على الإسلام .

من هنا نفهم أن التطورات التي حدثت على نطاق واسع في الممالك الإسلامية بعد نهضة الحسين بن علي كانت بمثابة إعادة ترتيب جيوسياسي والذي ما زال قائماً، ولعل طوفان الأقصى والوقفات التضامنية لنصرة القضية الفلسطينية في العالم باتت خير دليل على ذلك، فالحسين بن علي أراد توسيع نهضته لتكون عابرة للحدود وإعادة هيكلة المجتمع المدني الإسلامي، لأن صوت الحسين بن علي في نظر المسلمين مهم جداً لأنه أحد أقطاب أهل بيت النبي الخاتم (ص) .

المسلمون ما زالوا يتذكرون خطب الحسين بن علي ومدى تأثيرها على الجماهير، لأن الرهان في عملية التغيير كان على إيمان إنسان بسيط والمساهمة فيه بشكل كبير، وفي لحظة فاصلة من التاريخ الإسلامي استطاع صوت الحسين بن علي أن يصل إلى العالم حتى أصبح هذا الإنسان البسيط يصنع خطاب التغيير بنفسه وينتج خطابه ويلقيه في الحافلات وعبر منصات التواصل الاجتماعي والمقاهي وصفحات الجرائد فأنشئت منابر حسينية جديدة .

وعلى هامش هذا الخطاب الذي يشارك في إنشاد خطاب التغيير هناك ضجيج يريد وأد هذا الخطاب التغييري بالتنظير إلى استخدام خطابٍ بديلٍ يعزّز خطاب تضعيف الخطاب التغييري من خلال التركيز على جوانب لا تمت إلى سمات شخصية القائد كالحسين بن علي، على سبيل المثال قولهم : نحن لسنا بحاجة إلى دراسة التاريخ فهذا شيء ثانوي، بل علينا إحياء ذكرى أيام الحسين بالبكاء والنحيب هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك خطاب يريد التقليل من الجهاد ضدّ الكيان الصهيوني كما سمعنا من البعض المحسوبين على مكاتب الإفتاء في العالم الإسلامي " أن طوفان الأقصى كان مجازفة غير محسوبة من قبل حركة حماس". في الأولى تناسوا أن الحسين بن علي قال :"ما خرجت إلّا لطلب الإصلاح في أمة جدي"، فمتى كان البكاء عاملاً مؤثراً في إصلاح المجتمعات؟ ومتى يمكن للبكاء أن يكون كذلك ؟

عندما يكون الإنسان شاهداً على المأساة التي وقعت في وجوده ، فهذا الإنسان البسيط يشاهد ما وقع من الظلم على سبط النبي الخاتم (ص) وهو خير أهل الأرض في زمانه، فإن هذا البكاء قد تحول إلى عقيدة عنده فأنشأ بهذه الدموع سيلاً جارفاً جرف عدوّ الله ورسوله وكشف الأقنعة الفاسدة وهدم حصون الباطل، فأهلاً وسهلاً بهذه الدموع المنهمرة في مصاب الحسين بن علي لأنها استطاعت أن تغرق الظالمين في طوفان الأقصى هذا من جانب، وأما من جانب من يريد تغيير شيفرة خطاب طوفان الأقصى ليعزّز خطته في خداع الناس من خلال التلاعب باستخدام تقنيات تقوم على مفردات سياسية لإدخال الناس في حالة يأس من عملية طوفان الأقصى

خاصة بعد سقوط الهيبة الإسرائيلية ومن يقف في صفها ، خرج فقيه وهو جالس في غرفة مكيفة ليفتي ، والفقيه القاعد لا يفتي لقائم الذي اقتحم غلاف غزة العز بالسيارة الرباعية الدفع والطائرة الشراعية وسيطر على مواقع عسكرية حساسة وأسر عدداً من الضباط والجنود ودخل في اشتباكات مع العدوّ الصهيوني وكشف خططه وكسر جدار الخوف .

ولو قمنا بالمقاربة التاريخية بين كربلاء وغزة العز لوجدنا أن الخطاب الذي صنعه بنو أمية بأن الحسين بن علي خارجي ووجوده تهديد للنظام الأموي لتدخل السلطة الأموية بذلك في حرب الخطابات الإعلامية مع الحسين بن علي، وعلى خلفية سيناريوهات في المرحلة الانتقالية بين بدء تنصيب يزيد وليّاً للعهد وبين تغطية انتهاكات معاوية لأحكام الشرع استرد صوت الحسين بن علي قوته وأطاح بضربة واحدة الحكومات المزيفة عبر التاريخ .

هذه السيناريوهات هي نفسها التي يطرحها الخطاب المزيف حول طوفان الأقصى بأن بقاء المقاومة الإسلامية هو تهديد لوجود إسرائيل ولمصالح من يقف في صفها ، في حين أن الخطاب الجهادي كان خطاباً توسعياً في مساحات كبيرة ضمن نفوذه في العالم ، وبعد أن استرد قوته أطاح بضربة واحدة المؤامرة التي حيكت في القضاء على القضية الفلسطينية ، هذا دليل أن من يتمسك بالخطاب التغييري الحسيني سيعرف من هم المفسدون في الأرض لأن تاريخهم مدوّنٌ في ذاكرة الأجيال .

نحن غالباً عندما نتحدث في المجاميع الثقافية أو الفردية نستخدم مفاهيم من وحي الخطاب الحسيني مثل مفهوم الإصلاح حسبما جاء في وصية الحسين بن علي لأخيه محمد ابن الحنفية نذكر منها قوله: " إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي" ، وهذا المفهوم استقر في أدبياتنا حسب التجربة التاريخية لمفهوم الإصلاح وليس لنا أي تصرّف في زحزحة المفاهيم أو اكتسابها معان أخرى، بمعنى أننا ننظر إلى الإصلاح من وجهة تاريخية مترابطة مع مفهوم آخر كالنهضة مثلاً حيث يتم الربط بين هذين المفهومين كأمرين مترابطين معاً تاريخياً، هنا يطرح سؤال مهم : هل الإصلاح كان قبل النهضة أم العكس ؟ وكي لا أطيل عليكم في شرح كلا المفهومين فإن أبسط جواب هو أن الإصلاح يسبق النهضة بمعنى لا توجد هناك حركة نهضوية إذا لم تكن هناك حركة إصلاحية في السياسة أو الاقتصاد أو الفكر أو الثقافة أيّاً كان المجال، المهم أن الإصلاح يسبق النهضة .

سؤال : ولكن من له الحق في طلب الإصلاح؟ لا مراء في أن الإسلام واحد لا يتجزأ فلا يجوز القول أن هناك إسلامات متعددة طالما عرفنا أن الكتاب والسُّنة النبوية الشريفة والأحكام الشرعية منصوص عليها من القرآن الكريم ، مع العلم أن وحدة الإسلام كعقيدة لا يلغي تعدّد الأفهام ولا يسقط حقهم في الاجتهاد ، لا أريد الدخول في مواضيع جدلية بين النص والاجتهاد ما يهمنا هو التركيزعلى الخارطة العامة للإسلام بأي شكلٍ من أشكال انقسامه وتعدّد من يعبّر عنه.

فكل شخص له شخصية اعتبارية مستقلة استقلالاً نوعياً كنوعية الوظيفة المناطة به وعلى خلفية النهوض بأدائها ، فإذاً هناك من يفكّر في النهوض بوظيفته تجاه الإسلام عالمياً، وهناك من يفكّر في النهوض بوظيفته تجاه الإسلام شعبياً، الأول يفكّر ويعمل ضمن تمثلات فكرية قائمة على قاعدة الوعي بقواعد النصوص التشريعية وأحكام العقيدة، وهذا الدور لا يقوم به إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ ، أما من يفكّر في الإسلام الشعبي فهو يؤدي وظيفته ضمن التمثلات العامية لعقيدة الإسلام وتلقين الإنسان العادي أحكام الشريعة، وهذا لا يقوم به إلّا مجتهد شمولي، وقد يكون هناك فقيه في مجال واحد يؤدي وظيفته ضمن التمثلات الآحادية الجانب في أحكام الشريعة.

الإسلام لعب أفضل أدواره في توحيد الولاء العقدي المجتمعي ولم ينصرف إلى أداء دور واحد وإهمال أدوار أخرى كالذي حصل في عهد معاوية بن أبي سفيان حيث انصرف إلى تثبيت سلطته السياسية تاركاً خلفه الأداء التوحيدي والديني والاجتماعي وتفرغ لتبرير سلطته وشرعنته بغض النظر عمّا اكتنف تلك الشرعية من الانتهاكات والشبهات في نظر الدين الإسلامي .

فمساحة مبرراته كانت وسيعة في تحقيق أعز أهدافه وهي الهيمنة الأيديولوجية على الدين الإسلامي، فالعالم الإسلامي بعد اغتيال الخليفة الراشد العادل علي بن أبي طالب وقعت الأمة الإسلامية في ظروف صعبة منها : انشقاق أهل الشام عن الحجاز والخلافة الإسلامية ، والتعاون السياسي بين الروم ومعاوية ، مشكلة ثقافة أهل الشام حيث عمل الإعلام الأموي على تشويه صورة علي بن أبي طالب واعتبره مخالفاً للشيخين ويستحق اللعن والبراءة منه ، جنّد معاوية جيشاً بمساعدة الروم لا يعرف سوى العنف ولا يقبل السلم ولا يعرف من هم أهل الحجاز والعراق بل اعتبروهم مخالفين لكتاب الله .

هذه القوة التي وصل إليها معاوية ساعدته فيها عوامل عدة: منها غياب النصوص التي تذم معاوية، الأمر الذي استغله معاوية لدسّ الأحاديث في فضل ومناقب معاوية، بل وأكثر من ذلك جنّد وعاظ السلاطين وفقهاء الأمة وجعلهم يفتون على أحقية خلافة معاوية ، ناهيك عن الاستمرار في سياسة الاغتيالات السياسية لمن يخالفه ، والتلاعب في الصلاة وشرب الخمر جهاراً، وعلاوة على ذلك كله تثبيت ابنه يزيد وليّاً للعهد.

كانت أوضاع الأمة الإسلامية صعبة جداً لذا يمكن القول أنه لا يوجد هناك شيء نخسره، وقد فشلت كل المحاولات الإصلاحية كصلح الحسن بن علي مع معاوية ، ووقوف المعارضين ضدّ حكم بني أمية كالصحابي حجر بن عدي الذي قتله معاوية ، وامتناع أهل المدينة المنورة عن مبايعة يزيد غير أن ذلك لم يؤثر فيه قيد أنملة لأنه كان واثقاً من القوة العسكرية التي تحميه من قبل الروم والقبائل المسيحية من بني كلب .

لو نظرنا إلى القضية الفلسطينية سنجد أن حال الأمة الإسلامية مع العدوّ الصهيوني لا يقل عن حالها زمن حكم معاوية وابنه يزيد، حيث باتت القضية الفلسطينية تراوح مكانها بعد فشل كل مظاهر الصلح والانتفاضات المضادة ، بقيت غزة محاصرة والتوسع الاستيطاني الصهيوني حال دون وجود مأوى للفلسطينيين وهم أصحاب الأرض الشرعيون ، ظل الفلسطينيون في داخل الخط الأخضر يعيشون تحت نظام الفصل العنصري، وتسارعت وتيرة التطبيع والتخلي الجماعي العربي عن القضية الفلسطينية ، فهل بقي أمام كلا الحالتين من الخسائر التي مُنيت بها الأمة الإسلامية والدين الإسلامي من شيء نخاف عليه؟

ولكن النقطة التي ينطلق منها التاريخ ويعتبر شرطاً من شروط النهضة هي لحظة تحول أساسي في حياة الأمة لتغيير أوضاعها والخروج من عقدة الضعف والخوف، هذه اللحظة التاريخية كانت حاسمة عند الحسين بن علي عندما قرر الاستعداد لمعركة كربلاء وقراره هذا لم يكن بسبب أوامر نبوية له بالخروج كي ينال مقامه عند الله في الجنة وهو القائل "خير لي مصرع أنا لا قيه" بمعنى لا توجد هناك مقايضة بين المقام في الجنة وبين الحفاظ على قواعد الإسلام التي أسسها جده (ص) و الظرف التاريخي يحتم المواجهة العسكرية مع الدولة الأموية فهو بذلك أفشل كل مخططات يزيد التي رسمها له معاوية لتنطلق عملية الإصلاح في أمة جدّه فسقطت أحاديث في مناقب معاوية ويزيد ، وسقطت هيبة الدولة الأموية فاندلعت ثورات عليها حتى سقطت هذه الدولة ، رجع الناس إلى الدين الإسلامي ، ولم تستطع الحكومة الرومانية التدخل لإنقاذ بني أمية من السقوط .

فإذا كان الإسلام الرسمي المتمثل في الحسين بن علي قد لعب دوره المركزي في الإصلاح في أمة جدّه المصطفى (ص) يتناسب وطبيعة ارتباطه العضوي مع الكتاب والنبوة فهو إذاً أحق من يطلب الإصلاح في أمة الإسلام خاصة وأن هذا الإسلام استطاع أن يؤسس إسلاماً حركياً أو حزبياً لينهض بدوره الذي يفوق دور من يريد تسييس الدين الإسلامي ويخضعه وإياه لمطالبه السياسية ويستطيع تعبئة الجماهير ويمارس دوره التوعوي .

خرجت المقاومة الإسلامية من رحم هذا الإسلام الرسمي في مواجهة العدوّ الصهيوني لتأتي اللحظة الحاسمة لعملية طوفان الأقصى وتفشل مخططات العدوّ وتسقط هيبة الجيش الذي لا يقهر، وعاد الأمل إلى نفوس الفلسطينيين وأدركوا أن عودتهم إلى مساكنهم وأرضهم التي طردوا منها حتمي لا محال .

وإذا ما تجاوزنا مرحلة مشروع الحسين بن علي في طلب الإصلاح في أمة جدّه ، فإن النهضة والإصلاح يعيشان معاً الآن وأن الوشيجة بينهما قوية جداً وما يزالان ضمن مشروع أكبر رسم خارطته الحسين بن علي وهو مشروع التقدّم وصيانة كرامة الإنسان ليعيش في أمن وأمان في كل زمان ومكان. وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر.

1.النهضة الحسينية قراءة معاصرة عرض وتحليل ، صادق حسن اللواتي ، ص 167

2. https://www.elwatannews.com/news/details/7381009#goog_rewarded

3. https://www.aljazeera.net/news/2024/6/6/%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B7%D9%84%D8%A7%D8%B9-%D9%84%D9%84%D8%B1%D8%A3%D9%8A-%D8%BA%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A8%D8%A7%D8%A8